

## محاضرات في الشكلائية الروسية التأسيس والتأصيل

### المحاضرة الأولى: الشكلائيون الروس

انبثقت حركة الشكلائيون الروس من التلاءم أو الائتلاف بين تجمعين روسيين شهيرين: حلقة موسكو

اللّسانية وجمعية اللّغة الشعرية المعروفة بـ: جماعة الأوبواز (opojaz).

**أولا- حلقة موسكو اللّغوية:** تأسست سنة 1915 بجامعة موسكو، من أبرز أعضائها رومان جاكبسون الذي

يعزى إليه تأسيس هذا النادي اللّساني وكان برفقته مجموعة من الطلبة برعوا فيما بعد في التأسيس للمنهج

الشكلائي منهم فلاديمير بروب صاحب كتاب "مورفولوجية الحكاية الشعبية" سنة 1928. بالإضافة إلى ميخائيل

باختين، بوريس توما شيفسكي. ولقد صدر عن أعضاء هذه الحلقة ثلاث مجموعات من المقالات، إثنان بعنوان

دراسات في نظرية اللّغة الشعرية والثالثة بعنوان: دراسات في نظرية اللّغة الشعرية.

**ثانيا- جماعة الأوبواز:** وهو مختصر تسمية الجمعية باللّغة الروسية، نشأت في بطرسبورغ بعد سنة من نشأة حلقة

موسكو اللّغوية (1915)، من أبرز أعضائها فيكتور شك洛夫سكي ويوري تيريانوف، بوريس إجنباوم، هذين

الأخيرين من أبرز الشكلائين الروس الذين أوقفوا جهودهما على إقامة صرح النسق في الدراسات النقدية، وجذير

بالذكر أنّ أبرز أعضاء هذه الجماعة هم مؤرخون تحولوا إلى حقل اللّسانيات، متخذين من الشعر موضوعا أثيرا

للدراسة، وكان مدار اهتمام الشكلائين هو البنية اللّسانية للّغة الشعرية.

لقد سمى الشكلائيون أنفسهم بالمورفولوجيين، بينما ألصق بهم أعدائهم الوصف الشكلائي، لأنهم عاجلوا

الشكل بمجموعة من الوظائف لا مجرد صيغة سطحية.

وكان الشكلائيون لا يرتاحون إلى اسم الشكلية، وإن قبلوه على مضض لشيوعه، وقد تحفظ إجنباوم،

أحد رواد الحركة من هذه التسمية يقول: "إني أفضل أن أسمى المنهج بالمورفولوجي تمييزا عن الاتجاه النفسي

أو السوسيولوجي وما شابه، حيث لا يكون الأدب نفسه هو موضوع البحث، وإنما يعكسه الأدب، كما أنّه دعا الشكلية بالمخصصين لأنّهم يدرسون خصوصية الأدب.

على أن الشكلانية الروسية التي تأسست في مرحلة الصراع الإيديولوجي سرعان ما انتهت في حدود سنة 1930، تحت ضغط الرفض الرسمي الدكتاتوري لأفكارها وتوجهاتها، وانتهت تماما على يد الأحداث التاريخية الفعلية، وراحت ضحية الصراع الإيديولوجي.

## المحاضرة الثانية: الأسس الجوهرية التي ارتكزت عليها الشكلائية الروسية.

بحث الشكلائيون الروس في آليات النص الأدبي وتقنياته بغية الوصول إلى الخصائص الجوهرية التي تتشكل منها مادة البناء الأدبي وتأسيس علم أدبي مستقل على غرار المنهج اللساني، وانصبّ اهتمامهم على كيفية القول لا على ما يقال، أي أنّه ينصب على الأشكال والبنى بدل المحتويات، وركزوا على أطروحتين أساسيتين: الأثر الأدبي وأجزائه المكونة، والإلحاح على استقلال الأدب. لقد أشار رومان جاكبسون إلى انسداد اللسانيات التاريخية لأنّها انصرفت إلى البحث عن قضايا أصل اللغة ونشأتها والقراءة بين اللغات كما جسدها النحو المقارن في القرن 19، فلم تفسح المجال للبحث في القوانين الداخلية للفن الشعري إلّا مع التطور العالمي للتحليل البنيوي في اللسانيات، وهذا ما يجعلنا نتحدث عن انطلاقة جديدة للسانيات العامة التي لم تكن سوى مرحلة جنينية، وفسح الطريق أمام شعرية جديدة لها معالمها، بعد أن تخلصت من تبعات النزعة الرمزية المثقلة بالمتصورات الذاتية والفلسفية والجمالية.

تعامل الشكلائيون الروس مع النص الأدبي والشعر خاصة تعاملًا مع النسق المحايث واعتبروا أنّ موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كلّ مادة أخرى، فميّزت داخل الأدبية بين الشعر والسرد والخطابة.

**1- الجمالية:** وهي مصطلح فلسفي مشتق من الجمال الذي لقي حظه من كبار ممثلي الفكر الجمالي قبل الشكليين، وإذا كان الفلاسفة ينظرون إلى الجمال على أنّه صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سرورًا واضحًا فإنّه لدى الشكلائين على ارتباط وثيق بمفهوم الشكل، فدرسوا الأدب من خلال وظيفته الاستيقية (الجمالية)، وهي وظيفة مستقلة بذاتها كل الاستقلال فلا تخدم غرضًا أخلاقيًا أو اجتماعيًا أو تعليميًا، وإنّما الغاية منها الإدهاش والتأثير، فوظيفة النص تكمن في تصعيد الإحساس والانفعال والإدراك، وهذه الأمور لها تأثيرها المباشر على القارئ الذي يستجيب بدوره لأساليب جمالية غير معتادة وغير مألوفة استطاعت أن تكسر قيود الرتابة، وكلّ هذا لا يتحقق إلّا بدراسة مكثفة للأدوات الأدبية التي تجعل القارئ يتقبل النص كتجربة صاعقة، لقد

صرّح شكولوفسكي أنّه يهتم بدراسة القوانين الداخلية للأدب من منطلق أنّ الفن نتاج تقني وأن العمل الأدبي صناعة، وقدّم تينيانوف إحدى التّيمات الرئيسية لمعجم الشكلايين الرّوس النقدي مثل: نسق التّفنيات الأسلوبية لدى بريك، وكذا دراسة توماشفسكي حول النّسق الصوتي المنظم لغايات شعرية فأكد بذلك الشكلايين أنّ التواصل بين النّص والقارئ لا يتم من خلال الصور البلاغية فقط بل من خلال الصور السمعية والنحوية، ويكون بذلك دور الأديب هو محاربة المألوف والعادة، وتقدّم المادة الشعرية في صورة خلاقّة نحس من خلالها بكثافة اللّغة، وهكذا ربط الشكليون بين العامل الحسب والإدراك الذهني، وتكمن مرتكزات الجمالية في النقاط الآتية:

أ- احترام الشكل: إتقان اختيار الأدوات الفنية (الموسيقى، الانسجام، التصوير...).

ب- التزام الموضوعية: استبعاد العواطف الشخصية وحساب القيمة التاريخية النفسية...

ج- إنكار قيمة المحتوى: حيث تنكر الشكلائية المضمون وتتعصب للشكل فقيمة الشعر تنحصر في كيفية التعبير عن المضمون واقعيا كان أو اجتماعيا أو رجعي.

**2- الوصفية:** ركّز الشكلائيون في دراستهم للنّص الأدبي على وصف العمليات الوظيفية للنظم الأدبية وتحليل

عناصرها الأساسية، وقد أخذوا هذه الطريقة عن العالم اللّغوي فردناند دي سوسير الذي درس اللّغة من خلال المحور الوصفي ولكنه لم يتجاوز حدود الجملة في وصفه كما تطرحه البنيوية الصورية، واللّغة نسق مركب من أدوات

التعبير، حسب سوسير فكرة استغلّتها الشكلائية لتصف العمليات الوظيفية للنظم الأدبية وتحليل عناصرها

الرئيسية تحليلا دقيقا. وهذا ما يمثل عندهم "الوصف العلمي" للنّص الأدبي الذي يمكن من فهم النسق الذي

يحكم النّص في عمومته ضمن قوانينه الدّاخلية. "فما يحكم العلاقة بين العناصر اللّسانية ومستوياتها (الصوتية،

الصرفية، التركيبية، المعجمية) هو ما يطلق عليه النّسق". حيث تعمل هذه المستويات بشكل متلاحم وأي اختلال

في هذه العلاقة بين العناصر يفقد النّسق توازنه، وقد برهن "شكولوفسكي" على أن هذا التمييز بين المستويات

الصوتية العامة والخاصة صالح لدراسة الحكايات القصصية، كما عمق رومان جاكبسون أثناء إقامته "ببراغ"

الأساس الوصفي، وطبقه على الشعر التشيكوسلوفاكي.

إنّ منهجية الشكليين هي تشرّحية إلى حد بعيد، لأنّهم يهتمون بوجود الظاهرة الأدبية، لأنّ تفكيرهم وجودي وليس ميثافيزيقي، فكان هدفهم هو الإحاطة بمكونات النصّ والتعبير نقدياً عن الظاهرة الأدبية، وذلك بشرحها وتحليلها، فالمنطلق هو منطلق علمي لا بمعناه الدقيق ولكن بمعنى الاهتمام بما هو حاضر وموجود وعيني.

**3- علاقة الأدب بالخارج (أدبية الأدب):** رسخ جاكسون مقولته الشهيرة: إنّ موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنّما الأدبية أي ما يجعل منه عملاً أدبياً، وهي مقولة تلتقي مع المقولة الجوهرية للعالم اللسانيّ دي سوسير "إن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنّما هو اللّغة في ذاتها ولذا، فموضوع الأدبي يجب أن يكون دراسة للخصائص النوعية للموضوعات الأدبية، كما بحث الشكلاونيون في آليات النص الأدبي وتقنياته بغية بلوغ الخصائص الجوهرية التي تتشكل منها مادة البناء الأدبي وتأسيس علم أدبي مستقل على غرار المنهج اللساني غايته تحديد الأدبية.

لقد رفض إيجنباوم ربط الأدب كنظام بأي أنظمة أخرى خارجة عنه فالأدب شأنه شأن أي نظام معيّن للأشياء، مستقل بنفسه وهكذا أهمل الشكلاونيون نظريات علم الجمال وكلّ العلوم التي كانت دعامة للقراءات السياقية كعلم النفس وعلم الاجتماع، وقد أفاد الشكليون في مجال إنكارهم لعلاقة الأدب بالخارج من الدرس الألسني الذي قدّمه سوسير حين درس اللّغة كنسق مغلق (مبدأ المحايثة)، وتبقى مادة البناء الأدبي هي مركز الشكلانيين في دراستهم وإن كان مفهوم الشكل قريب إلى حدّ ما من البنية والمادة شكلية من الخطأ خلطها بعناصر خارجة عن البناء والعلاقة المتلازمة بين المادة والشكل وضعت حدّاً لهيمنة القراءات السياقية التي كانت تسقط الخارج على الداخل، وحسب الشكلانيين أنّ الأسلوب وليد النصّ ينفصل عن المؤلف لحظة الإبداع، ولكن رابطة الرحم تظل حضورية حضور الإبداع والإيقاع، ويظل النظام هو أساس الدراسة والتحليل.

**4- الصورة الشعرية:** تسهم الصورة في خلق إدراك متميز للشيء، لذلك فهي تسلك سبلاً ملتوية تختلف عن اللّغة العادية، فهي لغة يلتبسها الغموض، تصبح بعد ذلك وسيلة فنية من وسائل البناء الشعري، وترتبط مكونات الشعرية بمكونات الصوتية والإيقاعية النابعة من صميم النصّ ذاته، ورأى الشكلاونيون أن نمّح لوجهات النظر

النفسية والاجتماعية صلاحية قوانين الأعمال الأدبية في المقابل تبحث الشعرية في قوانين الخطاب الأدبي عبر إجراءاتها الخاصة ومرجعها هو الخطاب الأدبي على تنوع الشعرية (النظريات الشعرية).

## المحاضرة الثالثة: مفهوم البنية

قدّمت اللّسانيات البنيوية البنية على أنّها نسق من العلاقات الباطنية، تتصف بمخاصيتي الكلية والتحوّلات، ومعناه أن البنية لا تتألف من عناصر خارجية مستقلة عن الكل بل هي تتكون من عناصر داخلية للقوانين المميزة للنّسق، والمهم في البنية هو العلاقات القائمة بين عناصر النسق والبنية تفضي إلى المقاربة الملائمة للنّص الأدبي وذلك بوصفه كيانا لغويا مغلقا.

الشكلايون طوروا نظريتهم أثناء دراسة البنية حين تعاملوا مع الظواهر الأسلوبية ثم تجاوزتها إلى التعامل مع كلية النّص، واستبعد الشكليون الثنائية التقليدية المكوّنة من الشكل والمضمون، وأحلوا محلّها مصطلحي المادة والإجراء (الأداة، الوسيلة)، فالمادّة هي الكلمات والإجراء هو كل السبل الخاصة بالخلق الفني، فالبنية لا محتوى لها خارج الطريقة والمحتوى، يتم إدراكه داخل تنظيم منطقي، وشرط البنية هو التنظيم الشكلي.

### البنية والنسق:

من الملاحظ أن كتاب دي سوسير (محاضرات في اللّسانيات العامة) لم يضم مصطلح بنية ولكن هناك مصطلح بنية ولكن هناك مصطلح نسق الذي يطلق على العلاقة بين العناصر اللّسانية ومستوياتها، حيث تعمل بشكل متلاحم، واللّسانيات تدرس الأنساق الفرعية، كعلم الأصوات العامة، وعلم الأصوات الوظيفي، وعلم النحو، وعلم الصرف وعلم المعاجم وعلم الدلالة وكلّها تسعى إلى إبراز الخصائص الأنساق الصغرى ضمن النسق العام، ويبرز تأثير اللّسانيات واضحا حين نلغي تطبيق فكرة النّسق في المقاربات البنيوية التي تتفاوت في نظرّها للنّسق الأدبي وطرائق تحليله، فالنّص الأدبي بوصفه نسقا لا ينفصل عن نسقه العام، وأفضل مثال على ذلك ما قدمه فلاديمير بروب الذي قرّر أن نسق الحكاية مرتبط بالنسق السردي العام وكذلك عند الحديث عن النص الشعري لا ينبغي أن نفصله عن نسق الكتابة الشعرية بعامة.